ح مهدي جعفر صليل، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
صليل، مهدي جعفر حسين
بشائر الغفران بصائر في مواجهة الذنوب./ مهدي جعفر حسين صليل ـ القطيف، ١٤٣٧هـ
..ص، ..سم
ردمك: ٠-٠١٥٧-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
المعاصي والذنوب ٢- الشيعة أ. العنوان
ديوي٣, ٢١٢ ١٨٤٠/ ١٤٣٧

رقم الإيداع: ١٨٤٠/ ١٤٣٧
ردمك: ٠-٠١٥٧-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

تصميم وإخراج:
Mubarak
0 535 634 252
مبارك الطيب

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ-٢٠١٦م
القطيف- المملكة العربية السعودية

أطياف للنشر والتوزيع
هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣ ١) ٩٦٦ +
القطيف - شارع القدس
ص.ب ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail : atyaf-pd@hotmail.com

حسن موسى الصفار

بشائر الغفران

بصائر في مواجهة الذنوب

إعداد

مهدي صليل

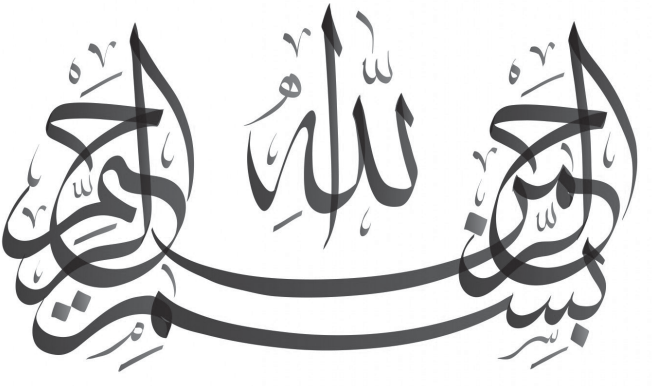

تقديم

يعيش الإنسان حالة صراع دائم بين العقل والشهوات، وهي من طبيعة الابتلاء والامتحان الذي يمثل حقيقة وجود الإنسان في هذه الحياة.

وفي خضم هذا الصراع، يتقلب الإنسان بين صعود وهبوط، فمرة ينتصر لعقله، ومرة تغلبه أهواؤه وشهواته.

وقد عالج الإسلام هذه الحالات معالجة واقعية تتناسب مع الطبيعة البشرية للإنسان، بحيث يصل إلى حالة من التوازن، تحفظه من الوقوع في اليأس والقنوط، وتمنعه من الاسترسال في الذنب والخطأ.

وهذا الكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ معالجة واقعية تلامس الموضوع من جميع جوانبه وزواياه.

وهي محاضرات لسماحة الشيخ حسن الصفار، قمت بترتيبها وإعدادها للنشر.

و اللافت في البحث أنني عندما عدت لأرشيف محاضرات سماحته، وبدأت جمع المادة المرتبطة بموضوع الذنب والتوبة كنت أظن أنها في حدود خمس أو سبع محاضرات على أكثر تقدير، لكنني فوجئت بوجود أكثر من ثلاثة عشرة محاضرة، تناول فيها الموضوع من زوايا متعددة.

إن المتتبع لمحاضرات سماحة الشيخ يلحظ قدرته على توليد الأفكار، ومعالجة القضايا المعاشة من مختلف الزوايا والأبعاد، ومن ذلك يمكنني أن أقرأ عدة أمور مهمة:

أولًا: تفاعله الصادق مع ما يؤمن به من أفكار.

ثانيًا: سعيه الحثيث لمعالجة القضايا الاجتماعية.

ثالثًا: تمكنه من البحث العلمي.

فهو يضع كل قضية على طاولة البحث، ويتخير لها أنجع الـدواء، من خلال رجوعه إلى المصادر الدينية والعلمية، ومعالجته الواقعية.

أسأل الله أن يوفق سماحة الشيخ ويسدد خطاه ويتقبل منا ومنه صالح الأعمال.

مهدي صليل

١٣ صفر ١٤٣٧هـ

حقيقة الذنب والمعصية

الذنوب والمعاصي في حقيقتها أفعال قبيحة، ليس فقط في نظر الشرع، بل هي كذلك في نظر العقل السوي، والأعراف الإنسانية عامة.

وكما قيل: إن الأحكام الشرعية تتبع المصالح والمفاسد الواقعيتين، ولذلك كل ذنب هو (قبح في ذاته) تحرّمه الشرائع، وتنفّر منه مكارم الأخلاق.

من هنا يكون الذنب عيبًا يقدح في شخصية الإنسان، ونقصًا يقلل قدرها وشأنها.

وفي اللغة: الذنب: الإثم والمعصية[1].

والذنب في الأصل: الأخذ بذنب الشيء.

(١) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي. معجم العين، باب (الذاء والنون والباء).

يقال: ذنبته: أصبت ذنبه، ويستعمل في كل فعل يُستوخم عقباه اعتبارًا بذنب الشيء، ولهذا يسمى الذنب تبعة، اعتبارًا لما يحصل من عاقبته. (الراغب)[١].

وقد تحدث القرآن الكريم عن الذنب والخطأ بألفاظ متعددة، منها على سبيل المثال:

١. الذنب، كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[سورة آل عمران، الآية:١١]

٢. المعصية، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية:٦١]

٣. الإثم، كقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْأِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[سورة الأنعام، الآية:١٢٠]

٤. الخطأ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾[سورة طه، الآية:٧٣]

٥. السيئة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[سورة القصص، الآية:٨٤]

٦. الجرم، كقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[سورة الأنعام، الآية:١٢٤]

(١) الراغب الأصفهانى. المفردات في غريب القرآن، باب (ذنب).

مسؤولية الإنسان

صدور الخطأ من الإنسان أمر طبيعي، متوقع منه لبشريته، وكذلك حصول الفشل أمر وارد، فحياة الإنسان ليست كلها نجاحات وانتصارات، وإنما تتخللها انتكاسات.

هذه الحقيقة البدهية لا تعني الاسترسال في الأخطاء وشرعنة حدوثها؛ فما دام الإنسان قادرًا على تجاوز الخطأ، وصنع ما هو صحيح، حينها يتحتم عليه السعي الدؤوب لتحقيق ما فيه الحق والصواب.

وهنا نتفهم دور الإنسان ضمن إطار المسؤولية التي تدفعه دومًا إلى الأمام، فالإنسان المسؤول هو الذي يتحسس ما عليه الواقع من إشكالات وأزمات، في صورتها الفردية والاجتماعية، وبالتالي تكتسب حياة الإنسان قيمتها الحقيقية من خلال المساهمات الإيجابية تجاه هذا الواقع، بحيث لا يمكن أن نتفهم قيمة لعمل الإنسان إلا إذا تفهمنا أنه مسؤول عن عمله، فهو مسؤول عن

النجاح، كما أنه مسؤول عن الفشل، وهذه المسؤولية هي التي تحقق الدافع الحقيقي لسعي الإنسان وكدحه في هذه الحياة.

كما أن الاعتراف بكون الإنسان يخطئ ويصيب، لا بُدّ أن يفهم ضمن الرؤية التي تحول هذا النقص إلى كمال، بحيث يستشعر الإنسان قيمة عمله، ويتحسس عظمة إنجازه، عندما يعمل بكل جده ونشاطه لكي يحقق النجاح والصواب دومًا، فهو نتاج سعيه وجده، أما إذا تعامل الإنسان مع الفشل بوصفه قدرًا حتميًا وأمرًا لا بُدّ منه، فحينها تتعطل قدراته، وتضعف همته، وتبدأ مسيرته التنازلية نحو الانهيار التام، فالمعالجة الحقيقية لواقع الإنسان ضمن قانون (الخطأ والصواب) يجب أن تضعه ضمن إطار المسؤولية التي تفتح الطريق أمام إنجازات حقيقية، وضمن هذه الرؤية الثقافية نجد معنىً لمقولة: «من اجتهد وأخطأ له أجر، ومن اجتهد وأصاب فله أجران» باعتبار أن الخطأ الذي يكون نتاجًا للسعي والعمل والاجتهاد أمر متوقع، ولكن لا يكون مبررًا للجمود، وعدم السعي والعمل؛ لأن الاجتهاد والسعي والعمل حقائق تكتسب قيمتها من طبيعتها، فالذي يسعى ويجتهد، ثم يقع في الخطأ يكون قد خسر الواقع ولم يصبه، إلا أنه كسب العمل والسعي والاجتهاد، وهي حقائق ذات قيمة ذاتية، وبالتالي يتحول الخطأ إلى حافز إضافي للسعي والجهد لتحقيق الصواب، ولذلك يكون له أجران، أجر إصابة الواقع وأجر العمل والاجتهاد.

من جهة أخرى فإن شخصية الإنسان لا تتكامل إلا من خلال مواجهة التحديات، وإحراز النجاحات في الامتحانات التي يتعرض لها؛ لأنه بذلك يفجّر طاقاته ويزداد ثقة بنفسه، ولذلك فإن الله تعالى جعل الإنسان معرضًا للتحدي من داخل نفسه، حيث تتشكل نفس الإنسان من مجموعة غرائز عارمة مندفعة، تتطلب من الإنسان قوة وإرادة لكبحها، وهذا ما يجعله وجهًا لوجه أمام التحدي، وهنا يكون الامتحان، فهل يستطيع اجتيازه بنجاح؟

ليس المطلوب من الإنسان كبت شهواته، فهي لها وظائفها الإيجابية حينما تمارس بالطريقة الصحيحة، ولكن المطلوب هو الاقتصار في إشباعها ضمن الحدود المشروعة والنافعة لحياة الإنسان.

منهج التعامل مع الخطأ

هناك منهجان في التعامل مع الخطأ والفشل:

■ المنهـج الأول: رصـد الخطأ والاعتراف به، ومن ثم السـعي لتجاوزه.

إن رصد الخطأ يجعل الإنسان في دائرة الوعي التام بكل ما يصدر منه، والاعتراف بالخطأ يجعل الإنسان ضمن دائرة المسؤولية عن فعله، والمسؤولية تعني تحمل نتائج الخطأ، مضافًا لاستدراكه وتفاديه، فحينما يخطئ يعترف بخطئه، ويسعى أن لا يقع فيه مرة أخرى، هذه هي الطريقة الصحيحة السوية.

■ المنهج الثاني: المكابرة والتنكر عند حصول الخطأ، والسعي للتملص منه.

وقد يصل التمادي والمكابرة بالإنسان إلى مستوى يبرر فيه الخطأ، ويحاول تصويره بصورة الصواب، وذلك بالتحايل عليه،

وتوجيهه غير وجهته، أو قد يبرر لنفسه فعل الخطأ بتبريرات سمجة واهية، أو يحمل الآخرين مسؤولية خطأه وفعله، وهذه حالة خطيرة ومدمرة للإنسان، فطالما أن الخطأ يمكن تبريره، فلماذا الحرص على صنع الصواب؟ وبخاصة أن الأخطاء التي يرتكبها الإنسان عادةً تشبع غرائزه وتحقق مصالحه الآنية، أما الإنسان العاقل الذي يردع هواه، ويراقب نفسه، فإنه يعترف بخطئه ويبحث عن أسبابه، إن الحالة التبريرية إذا تحولت إلى ثقافة للفرد أو الأمة فإنها تكون مدمرة لكل أسس التقدم والتكامل والازدهار.

حالات ارتكاب الخطأ

تختلف حالات الإنسان النفسية والفكرية عند ارتكاب الأخطاء والذنوب، ومعرفة هذه الحالات تساعد في التشخيص والعلاج.

أولًا: بين القصور والتقصير

قد يقع الإنسان في الذنب والخطأ نتيجة جهله والتباس الأمور عليه، وعدم معرفته بأن ما قام به خطأ، وهنا قد يعذر في ذلك، خاصة إذا كان قاصرًا في جهله؛ لأن الجاهل على نوعين: جاهل قاصر وجاهل مقصّر، فالأول هو الذي لم تتح له ظروف المعرفة، أما الجاهل المقصّر فهو من يستطيع أن يتعلم ولكنه لم يفعل، من

هنا فالجاهل القاصر أقرب للعذر، لكن الجاهل المقصِّر معرض للمحاسبة على تقصيره، وقد ورد أنه يقال للإنسان يوم القيامة: لِـمَ لم تعمل؟

فيقول: لم أكن أعلم.

فيقال له: لِـمَ لم تتعلم؟!!

ثانيًا: ذنب طارئ أم سلوك دائم

مرة يكون الخطأ سلوكًا دائمًا متكررًا، فيصبح عندها كالمرض المزمن، ومرة تكون الأخطاء عارضة نتيجة غفلة أو جهل، وسرعان ما يتراجع عنها الإنسان ويتوب منها.

فالإنسان المؤمن لا يرضى لنفسه القيام بالذنوب والأخطاء كسلوك دائم، أما صدور بعض الذنوب والأخطاء، فهذا أمر وارد في حياة البشر، من هنا ورد عن النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

من هذه الزاوية يمكن فهم حديث الفقهاء عن مفهوم (العدالة)، حيث يذكرون بأن العدالة تزول بارتكاب الذنب وتعود بالتوبة والاستغفار، فالعدالة ليست بمعنى العصمة، فالإنسان العادل وفق هذا المفهوم ليس معصومًا لا يصدر منه الخطأ، بل على النقيض من ذلك، قد يصدر من المؤمن العادل خطأ ما، لكن المناط هنا هو في الاستغفار والعودة عن الذنب، أو الاستمرار فيه

والإصرار عليه.

إن الله تعالى لا يصف المؤمنين بعدم الوقوع في الخطأ، لأنها صفة غير واقعية في حياة الإنسان، بل يصفهم بأنهم يندمون ويتراجعون عن الخطأ إذا وقعوا فيه، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[سورة آل عمران، الآية:١٣٥].

ثالثًا: بين الندم والابتهاج بالذنب

قد يكون الذنب في الحالة السوية سببًا للاقتراب من الله، وطلب العفو منه، والخوف من العاقبة السيئة.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من عبد أذنب ذنبا فندم عليه إلا غفر الله له قبل أن يستغفر»[١]، ذلك لأنه شعر بالندم فيغفر الله له.

وعلى النقيض من ذلك، فإن المصير السيئ ينتظر المذنب الذي لا يكترث بذنبه، وأسوأ منه المذنب الذي يفرح بذنبه!

فقد ورد عن الصادق عليه السلام: «من أذنب ذنبًا وهو ضاحك دخل النار وهو باك»[٢].

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي، ج ٢، ص٤٢٧.
(٢) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة، ج ١٥، ص٣٠٥.

و عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إياك والابتهاج بالذنب فإن الابتهاج به أعظم من ركوبه»[١].

وكمثال على ذلك عندما يتنازع شخصان، فيتمكن أحدهما من ظلم خصمه فيفرح بذلك، وكأنه حقق نصرًا عظيمًا.

إن ظلمك لغيرك ذنب، أما فرحك بهذا الذنب فهو ذنب أكبر.

رابعًا: بين التبرير ونقد الذات

قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [سورة القيامة، الآيتان:١٤-١٥].

التبرير أو (الاسقاط) كما يسميه علماء النفس، هي حالة من حالات خداع الذات، ففي داخل كل إنسان نوازع خير، وفطرة سليمة، تعاتب الإنسان وتؤنبه عند الذنوب والأخطاء، فيقوم الإنسان بحالة التبرير ليسكت نداء الفطرة والوجدان، وهو نوع من المخادعة والكذب على النفس، وهي حالة سيئة تعمل على تشويه الإنسان، ومسخ فطرته، وإعدام ضميره، وحتى وإن لم يكن هذا التبرير مقنعًا للنفس، إلا أن طول الوقت يؤدي إلى تعوّد النفس وتأقلمها مع واقع التبرير، إلى درجة يرتكب فيها الإنسان أبشع أنواع الجرائم ولا يسمع عتابًا من ضميره ووجدانه.

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص١٥٩.

وهذا ما تشير له الآية الكريمة ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[سورة فاطر، الآية:٨].

وهو نوع من تضليل الذات وخداع النفس وتبرير الخطأ وهذا أسوأ موقف، لذلك يعقب الله على هذه الحالة بقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ فمثل هؤلاء الناس الذين يسيرون في طريق تبرير المعاصي يضلهم الله؛ لأنهم يسيرون في طريق ينتهي بهم إلى الضلال حتمًا، وكذلك ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لأن الإنسان الذي يسير في الطريق السوي فإن الله يهيئ له الهداية والرشاد، ثم يخاطب الله نبيه ﷺ ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فالذين يرتكبون السوء ويقنعون أنفسهم أنهم يعملون خيرًا هؤلاء يكابرون ويعاندون ويصرون على مواقفهم، فالنبي أو أي مصلح سوف يتألم لحالهم، لكن الله يسلي نبيه ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾

هذه الحالة من أسوأ الحالات التي يمكن أن تصيب الإنسان، ولها عدة صور:

الصورة الأولى: أن يرتكب بعض المساوئ بدافع شهوة ورغبة، ولكن ضميره، يعاتبه فيسعى إلى إسكات صوت ضميره من خلال الخداع بأنها نزوة عابرة حتى يتخلص من التوبيخ الداخلي.

الصورة الثانية: أن البعض يحتج دفاعًا عن أعماله السيئة بأنها أقل سوءًا من أعمال أخرى، فيصور موقفه بين خيارين لا ثالث لهما وكلاهما سيئ، فيبرر ارتكاب أحدهما بوصفه أقل سوءًا من الآخر!، وهذا غير صحيح، فإن الأفضل ترك كلا الخيارين وسلوك طريق ثالث، وهو الصواب والصلاح.

بعض الشباب الذين لا تمكنهم ظروفهم من الزواج تجده يمارس بعض الأعمال المحرمة كاستخدام العادة السرية، ويبرر لنفسه بأن ذلك أفضل من انتهاك أعراض الناس! وهذا منطق مغلوط، فالفاحشة محرمة شرعًا، وإن كانت الحرمة متفاوتة في بعض درجاتها، كما أن الإصرار على الذنب حتى وإن كان صغيرًا يجعله كبيرًا.

الصورة الثالثة: أن الغاية الحسنة تبرر العمل السيئ، فبينما هو يسعى لغاية نبيلة يستعين في تحقيقها بعمل ووسيلة سيئة، ويسكت ضميره بالقول: إن هدفي كان نبيلًا، ولكن يغفل عن (إن الله لا يطاع من حيث يعصى) و(إن الغاية لا تبرر الوسيلة) في أي ظرف من الظروف، لأن الوسيلة جزء من الغاية، فإن كانت الغاية نبيلة ينبغي أن تكون الوسيلة حسنة صحيحة، ولا يجوز أن يسلك الإنسان مسلكًا خاطئًا من أجل غاية حسنة.

ومن مظاهر ذلك:

- تجد أحدهم يخرج من بيته يريد أن يدرك صلاة الجماعة لكنه يخالف أنظمة المرور كي لا يفوته ثواب الجماعة!!
- حين يتبنى الإنسان رأيًا، ويعتقد أن موقفه حق، ولكنه يتوسل من أجل نصرة رأيه بانتهاك شخصيات وأعراض الآخرين، فيكتب ضد من يختلف معه مشوهًا سمعته، ويدعي على آخر زورًا، معتبرًا أن كل ذلك مبرر؛ لأنه صاحب موقف حق، فيرى نفسه ـ على سبيل المثال ـ مجاهدًا ثوريًا فيتهجم على من يخالفه في الموقف ولا يرى له كرامة!!

أئمتنا سلام الله عليهم كان بإمكان أي واحد منهم أن يستعيد الحق الشرعي المأخوذ منه بطرق مختلفة، فأمير المؤمنين علي عليه السلام لم تكن تنقصه الشجاعة، وكذلك بقية الأئمة ما كانت تعوزهم الحيلة للوصول إلى مراكز السلطة، ومع أن إمامتهم حق، وهي مفيدة للدين والأمة، إلا أن الإمام لا يرى أن هذا الحق الكبير وهذه الفائدة الجليلة تبرر له سلوك طريق ملتوٍ كما يقول أمير المؤمنين: «وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَة فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَة كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

فعلى الإنسان المؤمن ألّا يخدع نفسه ويضلل ذاته، بل عليه

(١) نهج البلاغة. خطبة ٢٠٠.

أن يكون يقظًا فطنًا، فالشيطان يدخل من مداخل شتى، ظاهرها الصلاح، وحقيقتها الفساد.

هذه الحالة التبريرية قد تحدث على مستوى الفرد، وقد تحدث على مستوى المجتمعات، فبعض المجتمعات تعمل على مواجهة أخطائها، وتسعى إلى معالجتها، ولذلك تتقدم في كل الصعد، وترتقي في كل المجالات؛ لأنها تصحح مسيرها بشكل دائم وفعال.

من هنا كان النقد الذي مارسته أوروبا على نفسها هو العامل الأساس للتقدم الذي حدث؛ لأن نقد الذات هو الذي يتيح كشف ثغرات المجتمع، ويحدد أسباب الفشل والانتكاسات، وبالتالي يتحقق الشرط المنطقي لعملية الإصلاح، وتجاوز الأخطاء.

التحصين من الذنب والخطأ

يتفاوت الناس في المؤثرات والعوامل التي تدفعهم للإقدام على سلوك معين أو تمنعهم منه، ويختلفون في ذلك تبعًا للثقافة والبيئة وقوة الإرادة ودرجة الإيمان والتقوى.

ولو تأملنا أسباب ابتعاد الإنسان عن الذنوب والمعاصي لوجدناها ضمن هذه القاعدة من التفاوت والاختلاف، ونستعرض هنا بعض هذه العوامل والمؤثرات التي تحجز الإنسان عن ارتكاب الذنب:

إدراك القبح والضرر

هناك من يتجنب الذنوب والمعاصي لوعيه بقبحها وضررها، فهو لا يقترف المعصية لأنه يعي أن ذلك شيء يضره ويؤذيه، تمامًا كمن يتجنب شرب الماء القذر، أو أكل الشيء الفاسد؛ لأنه يدرك ضرره وتنفر منه نفسه، سواء كان أمام الناس أو في خلوته،

فالعاقل لا يشرب الطعام أو الشراب القذر؛ لأنه يستقبحه ويعرف ضرره.

القرب من الله تعالى والتزام أوامره

أهل الورع والتقوى يتجنبون المعصية التزامًا بأمر الله عز وجل، حتى لو لم يعرفوا العلة من هذا المنع، وما هي الفائدة وما هو الضرر، يسلمون لأمر الله عز وجل فينتهون لنهيه، ويلتزمون بما أمرهم به.

وهنالك مرتبة أرقى، وهي أن يتجنب الإنسان ممارسة بعض الأعمال حبًا لله تعالى.

كما يتجنّب البعض ممارسة عملٍ مّا لأنّه يكنّ مشاعر الحبّ والاحترام لوالده أو صديقه، الذي يمقت ممارسة هذا العمل، كمن يتجنب التدخين احترامًا لوالديه، فالباعث على الترك هنا أمر وجداني، سببه حبّ وتقدير، فإذا كان كذلك، فمن بابٍ أولى ينبغي أن يكون سلوكنا هكذا مع الخالق جلّ وعلا، فهو المنعم الحقيقي المستحقّ للشكر، ولعلّ أدنى درجات الشكر العملي تتجلّى في تجنّب الذنوب والمعاصي، التي هي ـ دون شكّ وريب ـ سبب لكلّ ضررٍ وسوء، تظهر آثارها على الفرد والمجتمع؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يحرم شيئًا عبثًا، فلو لم يكن فيه مضرّة لما حرمه الله ويقول تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الْخَبَائِثَ﴾.

فليكن ترك المعاصي والذنوب أمرًا نابعًا من تعلّقنا بالمنعم الخالق الذي إليه مآلنا ومصيرنا، بغضّ النظر عن الآثار المترتبة على العمل، ضارّة كانت أو غير ضارّة، فهو تعالى يقول لنا إني أكره لكم ممارسة هذا العمل، وفي خطابه تعالى لنا رادع قويّ للكفّ عن ارتكاب المعاصي.

الحياء

الإنسان بدافع التكيف مع بيئته، والحفاظ على سمعته، يتجنب الأمور المستقبحة حتى لا يعيبه الناس، كما أنه قد يتجنب المعايب خجلًا من ربه وخالقه، وهناك من يتركها حياء وخجلًا من نفسه، وهي الدرجة العليا.

يمكننا أن نقسم الحياء إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: الحياء من الناس

قد تجد إنسانًا فقيرًا لا يملك قوت يومه، لكنه يظهر في أفضل هيئة ممكنة، حتى لا يبدي للناس ضعفه وفقره، ويعبر القرآن الكريم عن مثل هذا النوع من الناس بقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

هذا النوع من الحياء هو الأبرز والأكثر وضوحًا، وهو مطلوب

في حدوده، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «من لم يستحِ من الناس لم يستحِ من الله»[١] والذي لا يراعي نظرة الناس إليه، ولا يهمه إن مدحوه أو ذموه فإنه لا يبالي أن يقوم بأي عمل يريده كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»[٢].

ثانيًا: الحياء من الله تعالى

حينما يخلو الإنسان بنفسه، حيث لا يراه أحد يخشى أن يؤنبه أو يوبخه، لكنه يترك القبيح لأنه يخجل من خالقه الذي يطلع عليه، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

وفي بعض الأحيان يتركه أيضًا أمام الناس، ولكن ليس خوفًا من نقدهم وإنما طاعة لخالقه.

هذا النوع هو درجة من الحياء أرقى من سابقه، فإذا كان من الجميل أن يستحي الإنسان من الناس، فمن باب أولى وأجمل أن يستحي الإنسان من خالقه عز وجل.

ثالثًا: الحياء من النفس

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أحسن الحياء استحياؤك من نفسك»[٣].

---

(١) عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي. غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) بحار الأنوار. ج ٦٨، ص٣٣٦.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

وقال أيضًا: «حياء الرجل من نفسه ثمرة الإيمان»[١].

ماذا يعني أن يستحي الإنسان من نفسه؟!

هل هناك ثنائية؟!

أي أنه شيء ونفسه شيء آخر فيستحي منها؟!

نعم.. حيث إن للإنسان في شخصيته بعدين، بعد العقل والضمير، وبعد الشهوات والأهواء، ومن هذا البعد الأخير تأتي مشكلة الإنسان، فيتوجب عليه أن يجاهدها ببعده الأول.. (عقله وضميره).

في نفس السياق يأتي معنى الحياء من النفس، فشهواته وأهواؤه تدفعه للقيام بعمل ما، أو التلفظ بكلمة ما، ولكن حين يستخدم عقله، ويحّكم ضميره، هل يقبل العقل هذا الأمر؟ إذا كان الجواب لا، فكيف يمارس ما لا يرتضيه عقله؟!

من هنا يتضح معنى الحياء من النفس، وهو أن لا يقوم الإنسان بعمل يستقبحه العقل، ولا يرتضيه الضمير، بل إنها قد تتجاوز مسألة الرضا والسخط الإلهي، فلا تبقى في حدود الحلال والحرام، بل ترتقي للالتزام بأفضل درجات مكارم الأخلاق.

هذه درجة من أرقى مراتب الحياء، وهي تتجلى كثيرًا في حالة

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي. عيون الحكم والمواعظ، ص٢٣١.

الخلوات، حيث لا رقيب من الناس هناك.

قيل لأحد الواعين ممن هم في هذه الرتبة، هل تتلفظ بكلمة بذيئة مستقبحة؟

قال: إني لأستحي من نفسي، ليس لأن هناك من يستقبحها أمامي، بل لأن نفسي أسمى من أن أتفوه بهذه الألفاظ.

وهكذا في أداء الأعمال الحسنة، فالإنسان يعمل الخير لأن ضميره وحسه الإنساني يدعوه لذلك، وليس من أجل مدح الناس وكسب رضاهم، ولا من أجل أن هذا أمر مندوب إليه، ولهذا ورد عن رسول الله ﷺ: «اصنع الخير لأهله ولغير أهله، فإن لم يكن من أهله فأنت من أهله»[1] أنت تفعل الخير لأن ذلك ما تقتضيه فطرتك ويدعو له ضميرك، بغض النظر عن الطرف الآخر.

ومن أبرز ثمرات هذا القسم الأخير أن الإنسان يكون أقدر على مراعاة حق الآخرين والإحسان إليهم البعيد منهم والقريب، من يستحق ومن لا يستحق، كما يكون ملتزمًا بالقيم والمبادئ في مختلف الظروف والأوضاع.

ويكفي لتنمية حالة الحياء أن يتذكّر الإنسان أن الله مطّلع عليه في جميع أحواله، فالنصوص والروايات تشير إلى أنّ المعاصي في الخلوات إثمها كبير وإن كان الجهر بها إثمه مضاعف؛ لأن الخوف من الناس والجرأة على الله في الخلوات استهانة به جلّ

(١) بحار الأنوار. ج ٩٥، ص١٦٨.

شأنه، ففي حديث عن رسول الله ﷺ أوصى به أحد أصحابه، قال: «أُوصيكَ أنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كما تَسْتَحِي رجلًا من صالِحِي قَوْمِكَ»(١).

من هنا جاءت النصوص مكثّفة تلفت نظر الإنسان إلى أن يكون في حالة يقظة ووعي ليحاسب نفسه في الخلوات، ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال:«اتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «من خلا بذنب فراقب الله تعالى ذكره فيه واستحيى من الحفظة غفر الله عز وجل له جميع ذنوبه وإن كانت مثل ذنوب الثقلين»(٣).

وقال الله تعالى معاتبًا من يحسب حساب الناس ويتجرأ على ربه المطلع على أحواله والمحيط بأقواله وأفعاله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[سورة النساء، الآية:١٠٨].

وقال الشاعر:

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرِيْبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ ... وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ

فَاسْتَحْيِي مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَا ... إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي

(١) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث٧٤١.
(٢) وسائل الشيعة. ج١٥، ص٢٣٩، حديث ٢٠٣٧٨.
(٣) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه. ج٤، ص٤١١، حديث ٥٨٩٥.

والإمام الباقر عليه السلام يؤكّد أنّ المعصية في الخلوة هي استهانة بالله لذلك توجب استهانة الله به، يقول عليه السلام: «من ارتكب الذنب في الخلاء لم يعبأ الله به»[١]، ولا شك أنّ الإنسان لا يريد أن يصل إلى مستوى يكون فيه بعيدًا عن لطف الله ورحمته به، فلو جعلنا هذا النّص نُصب أعيننا عندما يغرينا الشيطان، وتهيمن علينا شهوة من الشهوات، لكنّا أبعد عن غضب الله وسخطه، وفي الحديث القدسي يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيّه موسى عليه السلام: «يا موسى،.... واذكرني في خلواتك وعند سرور لذاتك أذكرك عند غفلاتك»[٢].

نماذج من التاريخ:

في أحد أيام معركة صفين واجه الإمام علي عليه السلام عمرو بن العاص، وعندما طعنه وصرعه أرضًا، رأى عمرو بن العاص نفسه أمام الموت ففكر في النجاة، فكشف عورته، عندها انصرف الإمام بوجهه عنه حياءً وتركه.

وحين سئل لماذا تركته؟

قال: كشف عن سوأته.

كان بإمكان أمير المؤمنين وهو في حالة حرب أن يقتله وليس

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٤٧.
(٢) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. الأمالي، ص٣٢٧.

عليه ملامة، لكن نفسه تسمو عن أن ينظر إلى سوأة أحد.

أحد المؤرخين ينقل هذه الحادثة ويقول: فانصرف علي عنه وولى بوجهه دونه، وكان علي لم ينظر قط إلى عورة أحد حياءً وتكرمًا وتنزهًا عما لا يحل. ولما رجع عمرو إلى معاوية قال له: يا عمرو احمد الله، واحمد عورتك التي نجتك!

ويذكر التاريخ أن الإمام الحسن بن علي عليه السلام اجتاز على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه، وكان إلى جانبه كلب، فكان يأكل لقمة ويدفع للكلب لقمة أخرى.

فسأله الإمام: لماذا تشرك الكلب معك؟

فقال: إني لأستحي أن آكل ولا أطعم هذا الحيوان الجائع.

ونقرأ في ديوان الشريف الرضي قصيدته التي يمدح فيها عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي الذي رفع سب أمير المؤمنين، يقول الشريف الرضي:

يا ابنَ عبدَ العزيزِ لو بكت ... العينُ فتىً من أميةٍ لبكيتُكْ
أنت نزهتنا عن السَّبِ والقذفِ ... فلو أمكن الجزاءُ جزيتُك
ولو أني رأيتُ قبرَك لاستحييتُ ... من أن أرى وما حييتك

من موانع المعصية

هناك نوع آخر من أسباب ابتعاد الإنسان عن ارتكاب المعاصي والذنوب، يمكن اعتبارها ضمن العوامل الخارجية.

أولًا: تعذّر المعصية:

هناك من يتجنب المعصية لتعذرها عليه، وهذه درجة من درجات التوفيق، كما ورد عن الإمام علي: «مِنَ الْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ الْمَعَاصِي»[1].

ثانيًا: وجود الرادع:

وفي الناس من يترك المعصية لوجود رادع، فلا يمارسها، أو لا يستمر عليها، وأكثر الناس هم من هذا الصنف.

ومن الأمثلة الواضحة على هذه الحالة، الامتناع عن ارتكاب

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٤٥.

المخالفات المرورية لوجود أجهزة الرصد، فإذا ما علم السائق بخلوّ الشارع من رادار أو دورية مرور تُحصي عليه مخالفته، فإنه لا يتورّع عن ارتكاب المخالفة تلو الأخرى، فهو إنما يلتزم هربًا من العقوبة.

وهكذا في كثير من المجالات، يتجنّب الناس ممارسة بعض الأعمال حينما يشعرون أن إقدامهم على هذا العمل أو ذاك تنالهم بسببه عقوبة من جهة مقتدرة.

وهذه هي فلسفة الحدود والتعزيرات وأنظمة العقوبات.

ولهذا حينما تنتفي العقوبات أو تخف في مجتمع فإن الأمن ينعدم، وهذا ما نلحظه فعلًا من كثرة الجرائم بسبب ضعف الرقابة والردع، حيث تسمع عن القبض على مجموعة من المجرمين وثبوت التهمة عليهم، لكن سرعان ما تسمع أنه تم إطلاق سراحهم بالكفالة، أو بالواسطة، وهذا أمر يشجع على الإجرام، فينعدم الأمن في المجتمع.

ثالثًا: الألطاف الإلهية

ومن لطف الله تعالى بعباده، أن يسبب لهم ما يمنعهم من ارتكاب المعصية، ومن أمثلة ذلك:

- الرؤية المحذرة

بأن يهيئ الله تعالى رؤيا مخيفة تحمل إشارات معينة للشخص العاصي أو الذي ينوي المعصية حتى يتعظ وينزجر. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان العبد على معصية الله عز وجل وأراد الله به خيرًا أراه في منامه رؤيا تروعه فينزجر بها عن تلك المعصية»[1].

أخبرني أحد الأشخاص أنه كان ذات مرة في سفر مع بعض الشباب، وكانوا ينوون ارتكاب أعمال سيئة، لكنه رأى في المنام أنه أمام حريق رهيب، والنار تقترب منه، فاعتبر ذلك إنذارًا وقرر التراجع عما كان ينوي فعله من عمل حرام.

■ العقوبة الدنيوية

وقد تشاء حكمة الله تعالى أن يكون هناك رادع بمثابة جرس إنذار يدقه لبعض العباد، حيث يصاب الإنسان بخسارة مالية، أو مرض، أو فشل، أو شيء يعكر صفو حياته ويعترض طريقه، فإن ذلك ربما يكون عقوبة لمعصية، عجّلها الله في الدنيا، وهو من توفيق الله عز وجل.

ومع أن هذا الإنذار هو لطف إلهي، إلا أن البعض لا يدرك مغزاه فينزعج من هذا الرادع.

ألا ترى كيف تزود بعض السيارات بجهاز إنذار لتنبيه السائق عند

(١) بحار الأنوار. ج ٥٨، ص١٦٧.

تجاوز السرعة، لكن البعض يزعجه هذا الصوت فيعمد إلى إسكاته.

ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَ زَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَ زَادَ فِي الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَ مَزِيدٍ خَاسِرٍ»(١).

وهذه من نعم الله عز وجل كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيرًا عجل عقوبته في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد سوءًا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة»(٢).

كما نقرأ في دعاء كميل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر الذنوب التي تغير النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».

وقوع الإنسان في مشكلة ما قد يكون جرس إنذار، وهذه نعمة من الله، وعليه أن يتنبه لها.

صحيح أن أي مشكلة تسبب إزعاجًا، ولكن إذا انتبه الإنسان أن هذا جرس إنذار، وابتعد عن المعصية وتاب منها، فإنه سيعلم أن ذلك كان خيرًا له.

والسؤال هنا: لماذا لا يكون الرادع من قبل الله تعالى حتميًا وفوريًا؟!

---

(١) نهج البلاغة. خطبة ١١٤.

(٢) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. الخصال. ص٢٠.

والجواب إن هذا ينافي حكمة الله تعالى في خلق الإنسان ووجوده في هذه الحياة، فقد خلق الله الإنسان ليبتليه، وليمتحنه، وإذا أتته العقوبة فورًا فلا يكون هناك فرصة كافية للامتحان.

يريد الله تعالى من عباده أن يتجنبوا المعاصي باندفاع ذاتي من داخل أنفسهم، كما يريد تعالى أن تستمر أمور الحياة ضمن ممارسة الإنسان لحريته واختياره.

لذا شاءت حكمة الله عز وجل أن لا تكون الروادع حتمية فورية يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، إنه يمهل العاصين ليؤاخذهم في الوقت المناسب ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾

وقد يكون وقت المؤاخذة بعد الموت، أو أن معنى ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي محدد بوقت يخصصه الله تعالى، وليست عقوبة فورية.

إن الله عز وجل لا يخشى أن يفوته العاصي كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام: «إنما يعجل من يخاف الفوت»[1]، فهناك يوم يحاسب الله فيه الناس ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ حينما يجتمع الخلق عند الله عز وجل فإن الله يعلم ما قدموا من خير وشر، فيحاسبهم ويكافئهم.

(١) بحار الأنوار. ج٥٢، ص١١٠.

الحذر من الاستدراج

بالطبع على الإنسان ألا يغتر لعدم نزول العقوبة، فكما يقول الإمام علي عليه السلام: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَ مَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ وَ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ وَ مَا ابْتَلَى اللَّهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ»(١).

ويقول عليه السلام: «الْحَذَرَ الْحَذَرَ فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ»(٢).

قسم من الناس حينما لا يجد ما يردعه، فإنه يستمر في المعصية، وهذا هو الامتحان الكبير، والذي يعبر عنه القرآن الكريم بالاستدراج والإملاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية:١٨٢].

والخطير في الأمر غفلة الإنسان وجهله وغروره بستر الله، فيصر على المعاصي، ويسترسل معها.

إن تكرار المعصية من الإنسان فيه تحدٍ لله، واستهانة بسخطه، وكفر بنعمة الستر، فعلى كل مؤمن أن يتحسس هذه النعمة، وأن يقابلها بالشكر باجتناب المعصية، وعدم تكرار الذنب، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من عبد يعمل عملًا لا يرضاه الله إلا ستر الله عليه أولًا فإذا ثنّىٰ ستر الله، فإذا ثلث أهبط الله ملكًا بصورة

(١) نهج البلاغة. حكمة ١١٦.
(٢) نهج البلاغة. حكمة ٣٠.

آدمي يقول للناس: فعل كذا وكذا»[١]، عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن لله تعالى على عبده أربعين جنّة فمن أذنب ذنبًا رفع عنه جنّةً فإذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت تلك الجنن عنه فيبقى مهتوك الستر فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة وفي الأرض على ألسنة الناس ولا يرتكب ذنبًا إلا ذكروه ويقول الملائكة الموكلون به: يا ربنا قد بقي عبدك مهتوك الستر وقد امرتنا بحفظه فيقول الله عز وجل: ملائكتي لو أردت بهذا العبد خيرًا ما فضحته فارفعوا أجنحتكم عنه»[٢].

(١) بحار الأنوار. ج٦، ص٦.
(٢) الميرزا حسين النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل. ج١١، ص٣٢٩، حديث١٣١٧٢.

الوقاية من الذنوب

يحتاج الإنسان المؤمن للوقاية الروحية الدائمة من احتمالات الوقوع في الذنوب والآثام، تماما كحاجته الجسدية المستمرة لتأمين النظافة والوقاية من الأقذار والأوساخ.

فعلى غرار سعي المرء للمبادرة للعلاج والوقاية الصحية من الأمراض، أو الحفاظ على نظافته من الأدران، ينبغي أن يكون هكذا على الصعيد الروحي، فليست هناك وسيلة أخرى يعصم المرء بها نفسه من احتمالات الوقوع في الذنوب والأخطاء، فالعصمة بيد لله يؤتيها بفضله من يشاء من عباده، أما سائر البشر فهم معرضون للجنوح نحو الأخطاء.

وتتميز الرؤية الإسلامية بنظرة واقعية للإنسان المؤمن، فلا ترفعه لمستوى الملائكة المنزهين عن الخطأ، وإنما تتعامل معه كسائر البشر المعرضين لارتكاب الأخطاء، تماما كقابليتهم للتعرض لسائر الأمراض الجسدية، ومن هنا نبعت الحاجة إلى

وقاية الروح وتطهير النفس، تجنبا لمزالق الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

الذكر الحقيقي

إن من أهم وأبرز سبل الوقاية الروحية من الوقوع في الأخطاء والذنوب هو التمسك بذكر الله سبحانه وتعالى، ليس باللسان فحسب، وإنما بجعل الله سبحانه حاضرًا في القلب والمشاعر.

إن استحضار عظمة الخالق في قلب الإنسان، والتفكر الدائم في عاقبة الأمور في الآخرة، هو أفضل ما يقي الإنسان به نفسه من الوقوع في الخطأ، وبدون ذلك يبقى المرء، حسبما تشير النصوص الدينية، معرضا للآثام مهما بلغت درجة تقواه وورعه، فهو محتاج للتذكر بأنه خاضع للرقابة الإلهية، وعدم الغفلة عن أنه عرضة للعذاب والسخط الإلهي، إن أوغل في الذنوب والأخطاء.

إن ذكر الله يكاد يكون حجر الزاوية في النأي بالنفس عن الفواحش والظلم، فالوقوع في المعاصي أمر مقرون بالغفلة عن ذكر الله، لذلك نجد الآيات الكريمة في تناولها للمتقين، تذكر أن من صفاتهم ذكر الله والمبادرة للاستغفار ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[سورة آل عمران، الآية:١٣٥].

ولعل الإشارة الأبرز هنا هي أن هؤلاء المتقين أنفسهم ليسوا في منأى عن ارتكاب الأخطاء، فقد ذكرت الآيات الكريمة من

صفات المتقين أنهم ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، لكن تتحدث الآية عنهم في الوقت عينه بالقول ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، والفاحشة من الفحش، وهو تعدي الحد، فليس المقصود بالفاحشة هنا ارتكاب الزنا فقط، وإن كان القرآن الكريم قد وصف الزنا بأنه فاحشة ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾، ذلك لأن الزنا من أظهر مصاديق الفاحشة، لكن حقيقة الأمر هي أن كل خطأ وكل ذنب هو تجاوز للحد، ويمكن أن يوصف حينئذ بالفحش والفاحشة.

إذن فالإنسان مهما بلغت درجة تقواه فهو معرض للخطأ والوقوع في الذنب.

وتتفاوت خطورة الذنوب باختلاف مقامات البشر، ففي حين تبقى ذنوب الإنسان العادي ضمن مستواه، فإن الأمر مختلف بالنسبة للمتقين، فأقل خطأ لدى هؤلاء يعتبر ذنبًا كبيراً، ولذلك ورد في الأثر «حسنات الأبرار سيئات المتقين». من هنا كانت الركيزة الأساس لدى الإنسان المؤمن هي نبذ الغفلة، وحضور القلب بذكر الله، والاستغفار الدائم عن ارتكاب الذنوب والفواحش، ما ظهر منها وما بطن.

تقوية المناعة ضد المعاصي

يحتاج الإنسان باستمرار إلى امتلاك إحساس مرهف تجاه ارتكاب الأخطاء والذنوب.

إن من نعم الله تعالى على الإنسان أن زود جسمه بأجهزة مناعة عضوية تقيه شرّ الآفات، كما زود روحه بجهاز مناعة يتمثل في الضمير المتحفز إزاء ارتكاب الأخطاء.

فكما أن جسم الإنسان يتمتع بجهاز مناعة يتشكل في الخلايا الليمفاوية، منوط به مكافحة الميكروبات والأجسام الغريبة الضارة بالجسم، كذلك تتمتع الروح بجهاز مناعة يتمثل في الضمير، ويستيقظ هذا الضمير عندما يقوم الإنسان بخطأ، فيشعره بالذنب، وتبدأ نفسه بلومه ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

إذا وقع الإنسان السوي في خطأ لضعف إرادة أو لسيطرة شهوة عليه، فإنه سرعان ما يشعر بوخز الضمير، فيلوم نفسه ويندم.

هناك الكثير من النصوص الدينية التي تحض الإنسان المؤمن على تنمية الحساسية داخل نفسه، تجاه ارتكاب الذنب والخطأ، فكما تكون لدى جسم الإنسان حساسية تجاه بعض الأطعمة فيظهر أثر ذلك على جلده مثلًا، كذلك عليه أن يتحسس من الذنوب، وذلك ما يعبر عنه في الأدعية المأثورة والنصوص الدينية بحالة الندم على الذنب.

إن أسوأ ما يمكن أن يمر به الإنسان هو أن يميت في نفسه الحساسية التي يتمتع بها ضميره بشكل طبيعي، فيرتكب الذنب دون أدنى اكتراث، وهذا ما يعني الاستهانة بالذنب.

إن على الإنسان المؤمن أن لا يستهين بأي ذنب مهما صغر في نظره، فكما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ»[1]، وفي رواية أخرى: «أعظم الذنوب عند الله ذنب صغر عند صاحبه»[2]، فلا ينبغي أن يعوّد الإنسان نفسه على الاستهانة بالذنوب، فمهما صغرت المعاصي عليك أن تعظمها في نفسك؛ لأنها مخالفة للعظيم والكبير المتعال سبحانه وتعالى.

ولعلنا نلحظ ذلك في حياتنا العادية، فقد يمازح أحدهم شخصًا ما قريبًا فيتقبل منه ذلك، لكن ذات التصرف يعد غير لائق عندما يجري أمام شخص عظيم القدر والمنزلة، علينا الاحتفاظ بيقظة ضمير دائمة حتى لا ننجرف خلف حالة الاستهانة بالذنوب.

فمن علامات الإيمان مستوى حساسيته تجاه الذنوب، فإذا رأيت نفسك غير مرتاحة عند ارتكاب أي خطأ، مهما كان صغيرًا، فهذا دليل إيمانك وصفاء نفسك.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٤٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.

مؤمن»[١]، وروى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام عنه قوله: «إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة. فقلت له: يدخله الله بسبب الذنب الجنة؟! فقال: نعم إنه يذنب فلا يزال خائفًا ماقتًا لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنة»[٢].

نحو مدعوون لجعل ضمائرنا حية يقظة على نحو دائم، سيما إذا أخطأنا بحق الآخرين.

المرجع يعتذر

ينقل أن المرجع الديني السيد البروجردي غضب من أحد تلامذته وعنَّفه أثناء نقاش دار بينهما خلال الدرس، لكن السيد البروجردي لم يستطع النوم في تلك الليلة، حتى ذهب بنفسه إلى منزل تلميذه ليقدم له الاعتذار ويطلب منه العفو، فتعجب التلميذ، وقال: أنت معلمنا ووالدنا فلا داعي للاعتذار، وإن كان ولابد فدع ذلك حتى الغد، فقال السيد البروجردي: إنه لم يغمض له جفن ولم يستطع النوم، متسائلا من يضمن لي أن أعيش إلى يوم غد.

إن يقظة الضمير حالة إيمانية عظيمة، ينبغي أن نربي أنفسنا عليها، فلا نتهاون بذنوبنا، ولا نستحقر غيرنا، وأيا كان خصمنا حتى لو كان خادمًا عندنا، سيطالبنا غدًا بحقه أمام رب العالمين،

(١) الشيخ الصدوق. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص١٢٥.
(٢) الكافي. ج ٢، ص٤٢٦.

ويا له من موقف صعب!!، وما أهون تقديم الاعتذار في الدنيا لو تأمل الإنسان وفكر.

كيف نعصي الله بنعمه

يتقلب الإنسان في نعم الله منذ أن يفتح عينه على الحياة وحتى آخر رمق يعيشه. فكل ما بين يدي البشر هو نعمة من الله، ولذلك حق على الإنسان أن يشكر الله تعالى على نعمه، وفي الحد الأدنى أن لا يستخدم هذه النعم في معصية الله جل وعلا.

إن فطرة الإنسان تدفعه للإحسان لمن أحسن إليه، وعقله يوجب شكر المنعم، فإذا أنعم أحد على أحد بشيء فإن العقل يوجب شكره، وقبيح عقلا ومستنكر وجدانا أن يقابل المحسن بالإساءة، والمنعم بالجحود، والأشد قبحا أن يستخدم الإنسان الإمكانات التي أنعم بها أحد عليه في الإساءة لهذا المنعم، هذا المبدأ يجب أن يكون حاضرا في نفس الإنسان ضمن علاقته بالخالق المنعم عز وجل.

ينبغي للمرء أن لا يعصي ربه، وإذا همَّ بمعصية فلا يليق أن يعصى ربه بالنعم التي أنعم بها عليه، من هنا يأتي السؤال: وهل عند الإنسان شيء غير ما أنعم به الله عليه؟ فكل جوارحك أيها الإنسان نعم من الله، فالعين التي تعصي بها ربك من خلال نظرة الحرام، من أعطاها قدرة البصر؟ وكذلك سمعك ويدك، وقدمك،

وجميع جوارحك وغرائزك، كل ذلك من عند الله، فكيف يسمح لك وجدانك وعقلك أن تقابل الله تعالى بالمعصية من خلال النعم التي أنعم بها عليك؟

تلفت الروايات الشريفة نظر الإنسان إلى عجزه عن الخروج عن سلطان الله ونعمه التي لا تحصى.

ويروى في هذا الشأن عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لِلَّهِ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ»[1]، روي أن الحسين بن علي عليه السلام جاءه رجل وقال: أنا رجل عاص ولا أصبر عن المعصية فعظني بموعظة، فقال عليه السلام: «افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل زرق الله وأذنب ما شئت، والثاني: اخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت، والثالث: اطلب موضعًا لا يراك الله وأذنب ما شئت، والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت»[2] فاتعظ الرجل وأناب.

لذلك على الإنسان أن يتوقف وأن يتأمل تجاه أي داع من دواع المعصية.

---

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٣٠.
(٢) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص١٢٦.

إن هذه النعم التي أعطاها الله للبشر في الدنيا، إنما هي جزء ضئيل جدًا من النعم الكبيرة التي ادخرها لهم في الآخرة.

لقد خلق الله تعالى الناس في هذه الدنيا حتى يمتحن مدى جدارتهم واستحقاقهم لتلك النعم المدخرة لهم في الآخرة، فإذا تصرفوا في هذه الدنيا على نحو جيد، ولم يستخدموا هذه النعم ـ على أقل تقدير ـ في معصية الله، فإنهم يثبتون استحقاقهم وأهليتهم لتلك النعم الكبيرة العظيمة في الآخرة، وذلك يشبه تماما كما لو أن جهة ما استضافتك لمدة أسبوع في قصر منيف وجُعل كل شيء فيه طوع يديك، ثم قالوا لك: سنرى بعد أسبوع كيف تعاملت مع هذه النعم التي وضعناها بين يديك، فإذا تصرفت بشكل جيد ولم تخالف النظم والقوانين، فسوف نعطيك أفضل منها مليون مرة، وستمكث فيها حينئذ طيلة حياتك، وليس أسبوعًا فقط، فهل هناك عاقل يختار أن يأنس بالاستجابة لرغباته لأسبوع واحد فقط ثم يكابد الشقاء طوال حياته، لا لشئ إلا لمجرد استسلامه لداعي الرغبة، فيفوت بذلك على نفسه النعم المقبلة طيلة حياته؟

إن ما سبق كان مجرد مثال لتقريب الفكرة للأذهان، فكل ما في هذه الدنيا، نعم محدودة قليلة مؤقتة، فالله تعالى يخاطب الناس في محكم آياته بأن هذه النعم التي تأنسون بها في الدنيا، هناك في الآخرة ما هو أفضل منها أضعافا مضاعفة، فالمطلوب منكم فقط أن تحسنوا التصرف في هذه النعم، فأنتم هنا في مقام

الاختبار، وعليكم أن تختاروا، فهل من عاقل يفوت تلك النعم العظيمة مقابل شيء زهيد في الدنيا؟

وقد ورد في الأحاديث الشريفة ذكر الكثير مما أعده الله تعالى لعباده الصالحين في الآخرة.

جاء عن رسول الله ﷺ: «لموضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها»[١].

«قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢].

وفي حديثه ﷺ إشارة إلى أن نعمًا كثيرة لا يمكن وصفها، وحياة مستمرة دائمة لا ينقطع أمدها، وجميع ذلك في مقابل شيء واحد فقط، وهو أن ينال كل منكم إجازة مرور حتى يحظى بتلك النعم.

تتمثل الإجازة في تجنب المعاصي، كما جاء في الآية الشريفة ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾، وفي آية أخرى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لن يحوز الجنة إلا من

(١) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي. تفسير الفخر الرازي. ج ٩، ص١٢٦.

(٢) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري. صحيح البخاري، ج ٦، ص٢١.

جاهد نفسه»[١].

على الإنسان أن يضع أمامه هذه الحقيقة: كلما دعته نفسه لمعصية، فلا ينبغي أن يفوت على نفسه ذلك النعيم الأبدي المقيم من أجل شهوات زائلة.

المطلوب منك أيها الانسان أن تواجه شهواتك في الدنيا حتى تحظى بلذات ونعم الآخرة العظيمة.

مواجهة النفس

الدين يربي الفرد والمجتمع على رفض ثقافة التبرير، يربي الإنسان على الاعتراف بأخطائه، ورصد أسبابها، والسعي لتجاوزها، يقول تعالى: ﴿بَلِ الْأِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ والبصيرة هي الرؤية الواضحة لواقع نفسه وما تسوّل له، فيعرف كونه مبررا للعمل السيء.

ويشجع الإسلام الإنسان على مصارحة نفسه ومواجهتها، فيأمره بنهي النفس عن الهوى ويجعل ذلك شرطًا لنجاحه في الدنيا والآخرة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ يجب على الإنسان أن لا يعوّد نفسه على ثقافة التبرير، حتى وإن كان على نحو المجاملة، فالله خالق الإنسان والعالم به ﴿بَلِ الْأِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٠٧.

وهناك نصوص كثيرة تربي الإنسان الفرد كما تربي الأمة، وتحث على الصدق مع النفس، والاعتراف بالخطأ، وتحمل أسباب الفشل.

عن عمر بن يزيد قال: إني أتعشى مع أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق إذ تلى هذه الآية ﴿بَلِ الْأِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ثم قال: «يا أبا حفص، ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه؟!!

إن رسول الله ﷺ كان يقول: من أسر سريرة رداه الله رداءها فإن خير فخير وإن شر فشر»[١]

يتحدث القرآن عن بعض صفات الخيرين فيقول: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «والله ما ينجو من الذنب إلا من اقر به»[٢]، وعنه عليه السلام: «لا والله ما أراد الله من الناس إلا خصلتين: أن يقروا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفر لهم»[٣].

(١) الكافي. ج ٢، ص٢٩٤.
(٢) بحار الأنوار. ج ٦، ص٣٦.
(٣) الكافي. ج ٢، ص٤٢٦.

البداية مع التربية

هكذا يعلمنا الإسلام وتربينا شرائعه وأحكامه على أن نكون صادقين مع أنفسنا، ويجب أن يبدأ هذا المشروع التربوي من الطفولة، فعلى العائلة أن تربي الأبناء على الصدق والصراحة، حتى يمتلك الطفل شجاعة الاعتراف بالخطأ.

فمن الظواهر الملحوظة عند الأطفال التنصل من الخطأ، والرمي باللائمة على الآخرين، بسبب الوسائل الخاطئة في التربية، فيجب ملاحظة ذلك ومتابعته بدقة، حتى ينشأ الطفل على الصدق ومواجهة الخطأ بكل شجاعة، وبذلك نتجنب ثقافة التبرير، فهي ثقافة مرفوضة حتى في الآخرة، ففي يوم القيامة يقال للإنسان لم لم تعمل؟!

فيقول: يا رب لم أعلم.

فيقال له: لم لم تتعلم؟!

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٧]، فبعض الناس يحمل الشيطان المسؤولية لكن الله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ

لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[سورة إبراهيم، الآية:٢٢].

المبادرة للتوبة

إن من نعم الله على الإنسان حين يقع في معصية ما، أن تنتابه صحوة الضمير وإدراك الخطأ، وذلك مدعاة للمبادرة إلى التراجع والتوبة التي تعني الشعور بالندم داخل النفس، ليقرر بعدها المرء الإقلاع عن الذنب ومعالجة آثاره.

هذه هي التوبة الحقيقية.

بيد أن الشيطان، وهو العدو المبين للإنسان، قد يفوت على المرء هذه الفرصة عبر وسائل وأساليب مضللة، أبرزها الدفع باتجاه التأخير والتسويف للتوبة، وصولًا إلى التراجع عنها في نهاية المطاف، وإنما تمحورت مهمة الأنبياء والأئمة في التنبيه ولفت الأنظار إلى مثل هذه المزالق، حتى لا ينخدع الناس بإغراءات الشيطان وأضاليله، ورد عن الإمام الجواد عليه السلام: «تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتلال على الله هلكة، والإصرار على الذنب أمن لمكر الله ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

(١) بحار الأنوار. ج ٦، ص ٣٠.

والعاقل من يبادر للإقلاع عن الخطأ والتوبة عن الذنب والمعصية، فقد يدرك أحدهم أنه أخطأ ويضمر في نفسه التوبة والإصلاح، لكنه يؤجل ذلك تحت تأثير نوازع الشيطان الذي يزين له التسويف.

هناك من يرتكب خطأ ما فيعترف بخطئه، غير أن الاعتراف بالخطأ شيء والتراجع والإقلاع عنه شيء آخر، لذلك تجد البعض يتحجج بأن الإقلاع عن الأخطاء يحتاج إلى وقت، وهنا يكمن دور الشيطان، الذي يسوّف للإنسان، ويجعله متباطئا عن إنجاز مهمة التوبة عن الذنب والخطأ.

ينبغي للإنسان أن يكون يقظًا تجاه أخطائه وذنوبه، وأن يبادر فورًا للتوبة النصوح والاستغفار دون تسويف ومماطلة وإرجاء للمستقبل المجهول.

وليس الاستغفار هنا مجرد ألفاظ يلقيها اللسان، وإنما هو عزمٌ قلبي وتصميم على عدم اقتراف الذنب مرة أخرى، فكما أنه لا يصح اليأس من رحمة الله، كذلك لا يجوز التسويف والإصرار على الذنب، ورد في الآية الكريمة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فعلاوة على أن الإنسان غير ضامن لعمره حتى يعمد لتأجيل توبته، يدل التسويف كذلك على اللامبالاة والاستهانة بأوامر

الله، لذلك على المرء أن يبادر للاستغفار والتوبة.

إن من كرم الله ولطفه بعباده أن فتح لهم أبواب التوبة على مصاريعها الواسعة، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك هو الإصرار»[1]، فيشير الإمام إلى أن المصرّ على الذنب هو ذلك الإنسان الذي يخطئ ولا يستغفر، بل لا يحدّث نفسه بالإقلاع عن ذلك الذنب والخطأ.

ولذا حثت النصوص الدينية على اليقظة إزاء ارتكاب الأخطاء، والمبادرة للتوبة والاستغفار ونبذ المماطلة والتسويف في إنجازها.

روي عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله أربع من كن فيه لم يهلك على الله بعدهن إلا هالك، يهم العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة، وإن هو عملها كتب الله له عشرا، ويهم بالسيئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء، وإن هو عملها أجل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات لا تعجل عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها فإن الله عز وجل يقول إن الحسنات يذهبن السيئات فإن قال استغفر الله لم يكتب عليه شيء وإن

(١) الكافي. ج ٢، ص٢٨٨.

مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة واستغفار، قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات اكتب على الشقي المحروم»[١]، فبحسب الرواية يعطي الله سبحانه فرصة التراجع عن المعصية على مدى ساعات من ارتكابها، للاستغفار منها ومحوها، حتى لا يبقى الإنسان منشدًّا إلى المعصية، ولا تبقى المعصية منغرسة في نفسه.

كما ورد عن زرارة قال سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن العبد إذا أذنب ذنبًا أجل من غدوة إلى الليل فإن استغفر الله لم تكتب عليه»[٢]، فالمذنب في النهار اذا استغفر ربه في ليلته لم تكتب عليه تلك السيئة. وروى الإمام الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كل ذنب استغفر الله»[٣]

مخاطر تأخير التوبة

إن لتأخير التوبة وتسويف الإقلاع عن الذنوب مخاطر كبيرة، نذكر منها:

أولًا: إن تأخير التوبة مدعاة لأن يخسر الإنسان لطف الله

(١) الكافي. ج ٢، ص٤٣٠.
(٢) الكافي. ج ٢، ص٤٣٧.
(٣) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص٦٩.

تعالى في محو المعصية والعفو عن الذنب عاجلًا، فالكثير من النصوص الدينية تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما يمحو الذنب عن عباده إذا ما سارعوا إلى التوبة حتى كأنهم لا ذنب لهم، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن العبد إذا أذنب ذنبًا أجّل من غدوة إلى الليل، فإن استغفر الله لم يكتب عليه»[١]. وكأن في ذلك بمقتضى قول الإمام عليه السلام فرصة للإنسان للمراجعة والتوبة قبل أن تكتب عليه معاصيه، وعنه عليه السلام: «العبد المذنب إذا أذنب ذنبًا أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتب عليه سيئة»[٢]. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه: «إن قارفت سيئة فعجل محوها بالتوبة»[٣].

ثانيًا: ينطوي تأجيل التوبة على مخاطر منها ضعف إرادة المرء واهتزاز عزيمته على التوبة، ويعود ذلك إلى أن الإنسان كلما استمر في القبول بالذنب فإنه يتكيف معه ويتطبع به، من هنا تأتي أهمية اقتناص لحظات الهداية لاتخاذ قرار التوبة توقيًا من امكانية التراجع عن هذه الخطوة فيما بعد، ولعل أقرب مثال يذكر في هذا السياق ما نجده من تقلبات اتخاذ القرار لدى الأطراف

(١) الكافي. ج ٢، ص٤٣٧.
(٢) الكافي. ج ٢، ص٤٣٧.
(٣) تحف العقول. ص٨١.

المتنازعة في قضايا إصلاح ذات البين، إذ تجد بعض الأشخاص يوافقون على تسوية الخلاف مع أقربائهم بعد طول حديث معهم، وتجدهم يعدون بإصلاح الأمر في الغد، إلا أنهم سرعان ما يتراجعون عما عزموا عليه في اليوم التالي وكأن شيئًا لم يكن، هنا يأتي دور الشيطان الذي يعمل بجد في هذه اللحظات، لذا على الإنسان أن لا يؤجل التوبة والإقلاع عن الذنب فور تنبهه ويقظة ضميره، ومن هنا نفهم قول الله تعالى حين يتحدث في محكم كتابه الكريم عن المسارعة في التوبة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ومضمون التعبير القرآني ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي لا يتأخرون في التوبة. وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام القول: «لا دين لمسوف بتوبته»[1]، وفي ذلك إشارة خطيرة من الإمام عليه السلام بأن من يسوّف التوبة سيكون عرضة لفقدان الحالة الدينية في نفسه.

ثالثًا: عدم ضمان المرء لحياته، فإلى متى سوف يؤجّل المرء التوبة ومتى سيقلع عن الذنب، أتراه يضمن حياته، أفلا يخشى هجوم الأجل عليه وهو بعد لم ينجز التوبة؟

ورد عن علي عليه السلام: «مسوّف نفسه بالتوبة من هجوم الأجل على أعظم خطر»[2].

(١) عيون الحكم والمواعظ. ص٥٣٨.
(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص١٣٠.

من هنا فإن على الإنسان أن يبادر للإقلاع عن أي ذنب ومعصية، سواء على مستوى العلاقة مع الله أو الناس.

كثيرًا ما تجد أناسًا لا يؤدون الحقوق الشرعية، مع أنهم يدركون أن ذلك حق عليهم، لكنهم يسوفون الأمر، والسؤال هنا؛ إلى متى التسويف؟! وهل تضمن استمرار حياتك وقوة إرادتك؟ فلطالما رأينا أشخاصًا تحدثوا عن قناعة بالحقوق الشرعية وبادروا بأدائها، غير أن آخرين غيرهم لم يؤدوا الحق الشرعي بسبب التأجيل والتسويف، ولم يمهلهم الأجل طويلًا.

وعلى غرار ذلك أشخاص آخرون انخرطوا في مشاكل مع أزواجهم وجيرانهم وأحدهم يعلم بخطئه، لكن مع ذلك يسوّف في إصلاح أمره، فهل يضمن حياته؟

إن على الإنسان أن يبادر للتوبة بمجرد أن يتنبه إلى الخطأ والمعصية. وهذا ما يوجه إليه الإمام الجواد بقوله عليه السلام: «تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتلال على الله هلكة».

«تأخير التوبة اغترار» أي حالة من الغرور يعيشها الإنسان الذي يعتقد بطول الأمل والعمر «وطول التسويف حيرة» أي يجعل الإنسان حائرًا بين الصواب والخطأ من حيث السلوك، «والاعتلال على الله هلكة» أي يتحجج بالعثور على فرصة مناسبة، في وقت آخر، هذه كلها أعذار ﴿بَلِ الْأِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ

بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾، والإصرار على الذنب أمن لمكر الله ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أبواب الأمل والرجاء

إن التوبة تعني الإقرار بالذنب والتعهد بعدم العودة إليه، إذ لا يخلو الواحد منا من ذنوب، فنحن بشر معرضون للأخطاء، وبالتالي فنحن بحاجة إلى التوبة.

وكما إن أجسامنا بحاجة إلى العناية بالغسل والتنظيف باستمرار، فلا يكتفي بأن يستحم الواحد مرة في العمر أو في السنة أو الشهر، كذلك الحال بالنسبة للروح، فكما يحتاج جسمك للتعهد بالنظافة تحتاج روحك ونفسك إلى التعهد بإزالة الشوائب، وهذا هو معنى التوبة.

ولعل السؤال هنا، إذا كان الله تعالى يعرف طبيعة عباده، المعرضين باستمرار لارتكاب الأخطاء وللذنوب، فما هو الموقف حينما يقع الإنسان في الخطأ والمعصية؟ حقيقة الأمر أن هناك حالتين تنتاب العبد في هذا المقام، حالة التساهل واللامبالاة، فلا يعود يبالي بأي ذنب أذنبه، وهي الحالة السيئة، وكما ورد عن علي عليه السلام: «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَخَفَّ بِهَا صَاحِبُهُ»[1].

(١) نهج البلاغة. حكمة ٤٧٧.

أما الحالة الأخرى التي قد تنتاب العبد المذنب فهي اليأس والقنوط وسيطرة العقد على نفسه.

إن النفس البشرية مركبة من قوى الخير والشر، فالإنسان يعيش صراعا مستمرا مع نفسه، ففيها ما يدفع لعمل الخير، وفيها ما يجره لارتكاب الخطايا، وفوق ذلك يتحلى كل إنسان بضمير يقظ يعاتبه على ارتكاب المعصية، وتلك هي النفس اللوامة بحسب تعبير الآية القرآنية ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

إن يقظة الضمير تجعل الإنسان غير مرتاح بسبب الذنوب التي ارتكبها، لكن هذه الحالة تتحول لدى بعض الناس إلى مستوى العقدة والاستسلام لليأس، وهذا خطأ كبير، فلا يجوز القنوط من رحمة الله، وقد حذرنا القرآن الكريم من هذه الحالة، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ﴾، وورد عن علي عليه السلام: «لا تيأس لذنبك وباب التوبة مفتوح»[1].

إن الله تعالى في محكم آياته يدعو عباده للتوبة ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾.

(١) ابن شعبة الحراني. تحف العقول، ص٢١٤.

فالله سبحانه وتعالى يدعونا إلى التوبة، وهو يتعهد بقبولها، فالعباد يعصون ربهم لكنه سبحانه يقول أنا أقبل توبتكم، وإن تكرر الذنب، وذلك من رحمة الله تعالى بخلقه، فهل ثمة لطف أعظم من هذا؟

إن وجود فرص الاستغفار لدى العبد المؤمن هي بمثابة دعوة مفتوحة بأن لا يقنط من رحمة الله، عن الإمام علي ابن موسى الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «تعطروا بالاستغفار لا تفضحنكم روائح الذنوب»[١]، فلننظر لهذا المعنى العظيم لهذه الرواية، فهي تشير إلى أن الذنب تكون له رائحة كريهة على الصعيد الروحي والمعنوي، تنعكس على شخصية الإنسان وسلوكه، هذه الرائحة لا تزول إلا بالاستغفار، وتلك نعمة كبيرة من الله سبحانه وتعالى، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من عبد أذنب ذنبًا فقام وتطهر وصلى ركعتين واستغفر الله إلا غفر له، وكان حقًا على الله أن يقبله لأنه سبحانه قال من يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيما»[٢].

ولنتأمل الرواية التالية التي تكشف إلى أي مدى يفتح الإسلام أبواب الأمل والرجاء أمام الإنسان، وكيف تدفع هذه النصوص والروايات الإنسان إلى أحضان الرحمة الإلهية، فعن أمير

(١) بحار الأنوار. ج ٦، ص٢٢.
(٢) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص٧٩.

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «العجب ممن يقنط ومعه الممحاة، قيل وما الممحاة، قال الاستغفار»[1]، فالإمام يشبّه الاستغفار بالممحاة التي يستخدمها المعلم أثناء الكتابة على لوح التعليم في الصفوف الدراسية، فهو يكتب ويمحو ويزيل ما يشاء بتلك الممحاة، كذلك الأمر مع الاستغفار فهو ممحاة الذنوب والأخطاء متى ما عزم العبد على ذلك.

من المؤسف أن يتشدد البعض على نحو مبالغ في محاسبة الآخرين على أخطاء ارتكبوها في فترة ما من حياتهم، حتى بعد أن أقلعوا عنها وتابوا منها.

نحن نواجه هذه المشكلة عند حالات الخطوبة والزواج، فترى أحدهم يتشدد في شروطه على نحو بالغ التعقيد، وقد يتشبث أحيانا بكلمة سمعها منذ زمن عن هذا الشاب أو تلك الفتاة، فيكون ذلك سببًا في عدم الموافقة والقبول بها أو به زوجًا.

إن التعاليم الدينية تشير بوضوح إلى رحمة الله الواسعة، وقبوله التوبة من عباده، فكما يمكن أن تصدر منا الأخطاء والذنوب فنعود عنها، كذلك الآخرون يمكن أن يعتريهم الأمر ذاته.

(١) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص٦٩.

محاصرة المعصية وستر الذنوب

إن الاعتراف بالذنب من أدق المسائل التي تناولتها الشريعة، وقد عدت إعلان المعاصي وإشهار الذنوب من السلوك المذموم، فلا يجوز للإنسان أن يتحدث بذنوبه للناس، وقد وورد عن رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، فان من الجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره ربه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا»[١]، كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «المذيع بالسيئة مخذول والمستتر بالسيئة مغفور له»[٢]، ورد في الأثر «إذا بليتم فاستتروا».

وقد ورد عن أحد الأولياء الصالحين القول: لا ينبغي لأحد أن يهتك ستر الله.

قيل: وكيف يهتك ستر الله؟

قال: يعمل الرجل الذنب فيستره الله عليه، فيذيعه في الناس.

لا ينبغي للإنسان أن يتحدث عن ذنوبه وأخطائه أمام الآخرين أيًا كانوا، ومهما كان قربهم منه، أو علت مقاماتهم الاجتماعية والدينية.

وبما أن الإنسان بطبيعته قد ينجرف وراء المعاصي فهو بحاجة

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي. كنز العمال، ج ٤، ص٢٧٢.
(٢) الكافي. ج ٢، ص٤٢٨.

إلى ظل يستره، فالمذنب إذا ظهر ذنبه وانكشف بين الناس، كان ذلك سببًا لفضحه وتوهينًا لقدره، من هنا كان من مظاهر رحمة الله تعالى على عباده ستر عيوبهم، ومساوئ أعمالهم صيانةً منه تعالى لحرمة الإنسان، ولو أن كل مذنب أذنب ذنبًا كشفه الله، لسقطت قيمة الناس أمام بعضهم بعضا، وكما ورد في الدعاء: «فكم من قبيح سترته».

وبرغم أن تخفي الإنسان وتستره على الذنب أمر ضروري، حتى لا تشيع الفاحشة، إلا أن ذلك التخفي لا يمكن أن يكون عن الله المطلع على كل شيء ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، فالإنسان يتستر بالذنب خوفًا من الناس، والله أحق أن يُخاف؛ لأن الله هو الذي ستر ذنبه وحبس عيون الناس عنه.

وضعت الشريعة وسائل عديدة لتحصين المجال الاجتماعي، ومنها التشديد على ضبط السلوك الفردي، لتقييد ومحاصرة المخالفات والمعاصي من الإفشاء والانتشار، فالمعصية جرم عظيم يجترئ من خلالها العبد على ربه وخالقه، فقد تغلب الإنسان شهوته وجهله، وتضعف إرادته، فيتجرأ على معصية خالقه جل وعلا، ذلك المنعم الخالق الموجد الذي له حق الشكر والطاعة على عبده، وهو سبحانه إنما توجه بالأوامر والنواهي رحمة بعبده المحتاج إلى لطفه ورحمته، لكن هذا العبد مع ذلك يجنح نحو التمنع وعدم الامتثال لهذه الأوامر والنواهي التي إنما

وضعت لمصلحته، إن المعصية جرم عظيم لا ينبغي للإنسان أن يقع فيه، ولذلك وجب أن تحاط المعاصي بهالة من التهيب والحذر في نفس الفرد والمجال الاجتماعي العام على حدٍّ سواء، ولعل أحد الأساليب التي وضعتها الشريعة لإيجاد هذه الهالة هو محاصرة المعصية.

العباد ليسو معصومين من ارتكاب الأخطاء، لكنهم مطالبون في المقابل بالتزام الستر والحد من إفشاء مخالفاتهم ومعاصيهم على الملأ، فإذا حصلت المعصية فينبغي أن تحاصر ضمن نطاقها الأضيق والمحدود جدًا، وذلك بالحرص على أن لا ينتشر خبرها؛ لأن من تداعيات الإفشاء بالمخالفات والمعاصي، أن تخف وطأتها على النفوس، الأمر الذي يجعلها أمرًا اعتياديًا مألوفًا.

إن الله تعالى يريد أن تبقى المعصية محاطة بهالة من الحذر والتهيب في الوسط الاجتماعي العام، فلا تكون مبتذلة وكأنها أمر طبيعي لا يستوحش منه.

من هنا نستطيع أن نفهم كيف جاءتنا النصوص والتعاليم الدينية مشددة على ضرورة أن يتكتم المرء على معاصيه التي يقع فيها، وأن لا يجهر بها، فالإجهار بالمعصية ذنب آخر يضاف إلى المعصية، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مجاهرة الله بالمعاصي تعجل النقم»[1]، وورد عنه عليه السلام: «إياك

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٨٨.

والمجاهرة بالفجور فإنها من أشد المآثم»[١].

إنه من الإثم الكبير أن يقع الإنسان في المعصية ثم يجاهر بما فعل، فالمرء مأمور بالتستر على مخالفاته ومعاصيه، ذلك أن إفشاء المعصية يقود إلى تطبع النفوس عليها، فلا يتردد أحد بعد ذلك عن اقترافها جهرة، ولعل الأسوأ من ذلك، هو الانقياد نحو التبجح بفعل المعاصي، حتى إنك تجد بعض الناس يفاخرون بمعاصيهم كما لو أنهم حققوا عملًا بطوليًا يستحق الثناء عليه!، وهذا جرم أكبر من المعصية ذاتها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «التبجح بالمعاصي أكبر من ركوبها»[٢].

وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «لا وزر أعظم من التبجح بالفجور»[٣].

إن على المرء أن ينأى بنفسه عن الحديث عن معاصيه التي سبق وأن تورط فيها.

وقد روي في هذا السياق عن الإمام الرضا عليه السلام عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله: «المذيع بالسيئة مخذول والمتستر بها مغفور له»[٤]، فذلك الذي أخطأ ووقع في المعصية فإن الله قد يغفر له، ولا يعني ذلك بالضرورة مبررًا لأن يستسلم المرء للمعاصي

(١) مستدرك الوسائل، ج ١١، ص٣٦٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص٥٤٠.
(٤) الكافي. ج ٢، ص٤٢٨.

باستمرار، فيقترف الذنوب في الخفاء ويتستر عليها، إذ ينبغي من حيث الأصل أن يحذر من الوقوع في المعصية في السر والعلن، ولكن لو حصل ووقع في المعصية فهو مطالب بالتستر والنأي عن إفشائها على أي نحو من الأنحاء.

وقد يجد بعض الناس أنفسهم تحت ضغط هائل من تأنيب الضمير بعد ارتكاب المعصية فيندفعون لإفشاء أسرارهم بغية التنفيس، إلا إن ذلك غير صحيح، فأوامر الشارع في هذا الشأن صريحة، تقطع بعدم الحديث عن المعاصي والأخطاء الشخصية أمام أي أحد كان وتحت أي مبرر.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين»[١]، ويقول ﷺ: «وإن من الإجهار أن يعمل الرجل بالليل عملًا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، فيصبح يكشف ستر الله عز وجل عنه»[٢]. وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «اجتنبوا هذه القاذورة ـ المعاصي ـ التي نهى الله عنها فمن ألم فليستتر بستر الله»[٣]، ولذلك يظل ستر المعاصي مطلبا أساسيا فلا مبرر لإفشائها مهما كانت الأسباب.

(١) كنز العمال، ج ٤، ص٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) كنز العمال، ج ٥، ص٤٤٤.

وأبعد من ذلك، ذهبت الشريعة إلى النأي عن إفشاء المعاصي حتى لغرض التطهر عبر إقامة الحدود، فقد يتساءل البعض عن حقوق الله التي انتهكها خصوصًا تلك التي وردت فيها الحدود والتعزيرات، فهل ينبغي على مثل هؤلاء أن يتقدموا للحاكم الشرعي ليقيم عليهم الحد؟

يأتي الجواب القطعي هنا؛ لا يطلب الشارع من الإنسان فعل ذلك، بل الوارد هو النهي عن الإقدام على مثل هذا السلوك، فقد أتى النبي ﷺ رجل فقال: إني زنيت [فطهرني] فصرف النبي ﷺ وجهه عنه فأتاه من جانبه الآخر ثم قال مثل ما قال، فصرف وجهه عنه، ثم جاء الثالثة فقال له: يا رسول الله إني زنيت وعذاب الدنيا أهون لي من عذاب الآخرة فقال رسول الله ﷺ: أبصاحبكم بأس؟ (يعني الجنون).

فقالوا: لا.

فأقر على نفسه الرابعة، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم[1].

وقد أراد رسول الله ﷺ بذلك أن يلتمس له العذر وأن يمنحه فرصة لأن يستر على نفسه، ولكنه أبى إلا أن يقر على نفسه أربع مرات فكان لا بدّ من إقامة الحد عليه.

وورد في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أن رجلا أتاه في الكوفة،

(١) محمد بن الحسن الطوسي. تهذيب الأحكام، ج ١٠، ص٨.

فقال: يا أمير المؤمنين إني زنيت فطهرني.

فقال له عليه السلام: اذهب حتى نسأل عنك.

ثم عاد مرة أخرى وسأل نفس الشيء، وقال له الإمام مثل القول الأول، إلى أن أقر أربع مرات فقال لقنبر: احتفظ به، ثم غضب، وقال: ما أقبح بالرجل منكم أن يأتي بعض هذه الفواحش فيفضح نفسه على رؤوس الملأ، أفلا تاب في بيته، فوالله لتوبته فيما بينه وبين الله أفضل من إقامتي عليه الحد[1].

هكذا يريد الله من الإنسان أن يستر على نفسه، فلا تكون المعصية مبتذلة على المستوى الشخصي أو الاجتماعي، ولذلك لم يرد في الشريعة الإسلامية ما يجري في الكنيسة المسيحية مثلا، بأن يأتي المذنب للكاهن ويعترف بين يديه بذنوبه حتى يطلب له المغفرة، فليس مطلوبًا من المسلم أن يأتي للمرجع أو عالم الدين ويقر له بذنوبه.

إن استفتاء العالم وطلب النصيحة والمشورة أمر مطلوب، لكن حتى لو اضطر السائل إلى ذلك فليكن على طريقة الحكاية؛ ماذا لو أن شخصًا ارتكب كذا، لا أن يقول أنا قمت بكذا واقترفت كذا.

كما لا ينبغي أن يفشي المرء مخالفاته حتى أمام الخلص

(١) الكافي، ج ٧، ص١٨٨.

من أصدقائه، لأن ذلك سيخفف من وقع المعصية في نفوسهم، علاوة على ما سيترك في نفوسهم من أشياء غير مرغوبة تجاهه، وينسحب ذات الأمر على الأزواج أيضا، فقد ينجر بعض المخطوبين أو المتزوجين إلى الحديث عن ماضيهم الخاص فيسرد أحدهما للآخر، بحسن نية، كيف فعل كذا وكذا!، وهذا خطأ فادح، إذ ليس مطلوبًا من البنت ولا الشاب أن يقدم مثل هذه الاعترافات، علاوة على غياب أي مبرر شرعي لحديث من هذا القبيل، بل على النقيض من ذلك، المطلوب من الإنسان أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه، فالله يريد من الناس أن يتعاملوا مع بعضهم البعض حسب ظواهرهم، لذلك لم يأذن بالتجسس ولا البحث عن أحوال الناس الخاصة ونشر معايبهم، كما لا يسمح للإنسان نفسه أن يتحدث عن عيوبه هو أيضًا.

وقد رأينا آثار ذلك في بعض المشاكل، حيث تلجأ بعض الفتيات لإخبار خطابهن بما فعلن في الماضي، وكيف تجاوزن أخطاءهن لاحقًا، لكن بعض الشباب قد لا يتحملون ذلك، حتى لو كان هو نفسه قد وقع في ذنوب مثلها أو أشد منها، فيتغير ميله لها، مما يؤدي إلى انفصام عرى الحياة الزوجية، ولذلك شددت الشريعة على محاصرة المعصية ومحاصرتها بالتكتم والتعتيم عليها.

في هذا السياق نتلقى بين الفينة والأخرى أسئلة متعلقة بمشاكل العلاقات الزوجية، اذ تستفسر من خلالها الزوجة حول

ما إذا كان من واجبها إخبار زوجها عن أخطاء كانت ارتكبتها في الماضي، نزولا عند الرغبة في المكاشفة والمصارحة، وذات السؤال يأتينا من بعض الأزواج، وقد يذهب البعض بعيدا في اعتبار مصارحة الزوجين لبعضهما بأخطائهما الخاصة، نوعًا من الشفافية والمثالية الجيدة، والحقيقة أن هذا النوع من المكاشفة بين الزوجين خطأ كبير ينبغي اجتنابه، فالواجب أن يستر الإنسان ما ستره الله عليه، أما الاعتراف بالذنب فلا يكون إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فبين يديه سبحانه يقر العبد بذنوبه، ويتوب إليه التوبة النصوح، ويطلب منه المغفرة، فلنبادر جميعا للمكاشفة مع الله تعالى وطلب التوبة منه.

المحتويات

تقديم.. ٧
حقيقة الذنب والمعصية ٩
مسؤولية الإنسان ١١
منهج التعامل مع الخطأ ١٥
حالات ارتكاب الخطأ ١٦
التحصين من الذنب والخطأ ٢٥
إدراك القبح والضرر..........................٢٥
القرب من الله تعالى والتزام أوامره ٢٦
الحياء ٢٧
نماذج من التاريخ: ٣٢
من موانع المعصية............................... ٣٥
أولًا: تعذّر المعصية: ٣٥
ثانيًا: وجود الرادع: ٣٥

ثالثًا: الألطاف الإلهية..... ٣٦
الحذر من الاستدراج..... ٤٠
الوقاية من الذنوب ٤٣
الذكر الحقيقي ٤٤
تقوية المناعة ضد المعاصي ٤٦
المرجع يعتذر ٤٨
كيف نعصي الله بنعمه ٤٩
مواجهة النفس ٥٣
البداية مع التربية..... ٥٥
المبادرة للتوبة..... ٥٦
مخاطر تأخير التوبة..... ٥٩
أبواب الأمل والرجاء..... ٦٣
محاصرة المعصية وستر الذنوب..... ٦٧
المحتويات ٧٧